الفصل الأول

خلـق العالـــم

تمهيد

يحاول فيلون أن يضع مفهومًا مغايرًا لخلق العالم، يختلف عن الرؤية اليونانية للخلق، تبدو هذه المحاولة فى وضع الخلق فى إطار فلسفة الدين، وقد يتبع هذه المحاولة ثلاث إشكاليات، الأولى: كيف استطاع فيلون أن يفسر أسفار الكتب المقدسة من خلال الفلسفة، أو بعبارة أخرى، كيف وضع فيلون مفهومًا فلسفيًا من التوراة يرتد به إلى الدين مرة أخرى؟ الثانية: على أى كيف كان الخلق؟ هل كان فيضًا أم نظامًا معقولًا على غرار الأفلاطونية؟ أم أنه مزيجًا تلفيقيًا من الفلسفة اليونانية عامة؟ الثالثة: إن كان فيلون أفلاطونيًا فماذا يعنى تدرج خلق العالم عنده، أعنى، خلق العالم على درجات ست على نحو ما جاء فى الكتاب المقدس.

وعلى غرار هذه الإشكاليات قسم الفصل إلى العناصر الآتية:

أولًا: الفلسفة والدين لتفسير العالم.

ثانيًا: الخلق المتدرج العالم.

ثالثًا: المؤثرات اليونانية على مفهوم الخلق.

أولًا ـ الأصول الفلسفية والدينية لتفسير خلق العالم

يضع فيلون حديثه عن العالم فى بداية أعماله فى الجزء الأول الذى

يجمع عنوانين أولهما: خلق العالم de opificio mundi أو on the account of the world›s creation given by moses خلق العالم طبقا للتوراة، والأخر: وهو التأويل المجازى legum allegoria أو allegorical interpretation of genesis 11 التفسير المجازى لسفر التكوين 1 و2. وقد اتبع هذا الجزء بتتمة SUPPLEMENT بعنوان تساؤلات وحلول على سفر التكوين QUAESTIONES ET SOLUTIONES IN GENESis بالإضافة إلى هذه العناوين التى ضمت حديث فيلون عن العالم، فإن حديثه عن خلق العالم لا يمكن أن يحصره عنوان معين، لأن خلق العالم عنده نواة لفكره الدينى أو إن جاز التعبير ـ أساس فلسفة الدين عنده ـ فكل قضية تلقى بظلالها على فيلون يتلازم معها الطرح التقليدى وهو خلق العالم.

وعلى غير عادتنا بالفكر يستهل فيلون خلق العالم على أساس وضوح الشريعة الموسوية، «لأن الرب أعطاها صريحة وبدون تزيين وكساها أفكارا لا لها علاقة بالمسائل المعقدة أو الملبدة بالضباب، أو التى تخفى الحقيقة فى الخيال. حيث ازدرى موسى التعاليم التى تتجنب إجتهادات الفلاسفة والأخرى التى تكون مليئة بالأخطاء. ثم استهل شريعته باستهلال مؤثر جدا، وأحجم على نحو مفاجئ عما يمكن تجنبه من هذه التعاليم، ثم أعد العقول لتقبل هذه الشريعة والعيش فى ظلها، وامتنع عن اختلاق الأسطورة، أو ما يكتسب من تأليف الأخرين»[1]. وهذا الاستهلال قد يثير الإعجاب لأنه حكم قبلى يفرض أن هناك إنسجاما لاهوتيا وضعه الرب بين الشريعة والعالم من ناحية و بين العالم وإعمال العقل من ناحية أخرى. وهنا يقدم فيلون تقرير ينفى التناقض بين الشريعة والعقل. وإن كنا قلنا على غير العادة، لأن المتعارف عليه أن يحاول الفيلسوف أن يقدم مجموعة من المقدمات التى يناقش بها قضاياه ثم يصل بتحليل مقدمات النسق الفلسفى إلى نتيجته. لكن

(1) Philo: On The Creation, Ch 1, 1, 2 P 7.

فيلون هنا على عكس المتوقع تماما، لأن الطرح المسبق لعدم التناقض بين الشريعة والعقل يوضح منهجية فيلون فى الاستعانة بالفلسفة اليونانية وعلى الأخص محاورة تيمايوس، والفكر العبرى من الكتاب المقدس، كأساس يعتمد عليه فى تفسير الخلق، وجاء ذلك عند فيلون على مستويين، الأول: وهو الأسلوب العبرى، والثانى: التأمل المجرد فى الفلسفة اليونانية[1] وهذا الانسجام الذى سنراه على المستويين الموسوية من جهة والأفلاطونية من جهة أخرى فى خلق العالم شكل أساسا لمستقبل الفكر المسيحى خاصة عند أوريجين وكليمنت[2].

هذا الربط الفيلونى بين الفلسفة والدين يبين دور الفيلسوف الذى هو أشبه بدور العارف الدينى أو المتصوف الساعى إلى إدراك الحقيقة الإلهية وبين رجل الدين المخلص الذى يسعى إلى تأويل النص الدينى تأويلًا عقليًا[3].

ويحار الباحث فى فكر فيلون هل هو فيلسوف يتناول الدين تناولًا فلسفيًا عقليا بحيث يمكننا ان نعتبره أحد فلاسفة الدين ـ إن جاز التعبير ـ أم هو رجل يحاول بكل ما يمتلكه من قوة الدليل العقلى أن يدافع عن دينه وأن يفسره تفسيرا فلسفيا لاهوتيا فى عصر كانت الثقافة السائدة فيه هى الفلسفة؟! وهذا ما تحاول الدراسة أن تكشف عن ماهيته.

---

(1) Daviad Runia ; The Internet Encyclopedia Of Philosophy, File; // D: / Resource Pages For Philo Of Alexenderia. Htm. P 2.

(2) لتقفى الأثر الفيلونى على الفكر المسيحى وخاصة أوريجين: أنظر مسعود عطا إبراهيم: تصور الالوهية لدى فلاسفة مدرسة الاسكندرية، رسالة ماجستير غير منشورة، كلية البنات جامعة عين شمس 2005، ص 86.

(3) د/ مصطفى النشار: مدرسة الاسكندرية الفلسفية بين التراث الشرقى والفلسفة اليونانية، دار المعارف، الطبعة الأولى، 1995، ص 59.

إن الحقيقة عند فيلون إذا كانت واحدة من الدين أو الفلسفة لا يمكن أن يكون أحد طرفيها كافيا لتفسير الخلق لأنه على حد تعبيره «لا يوجد كاتب فى الشعر ولا فى النثر يمكن أن يتناول بإنصاف الحقيقة، أو يحمل أفكار ذات مغذى عن خلق العالم Cosmos لأن ذلك يفوق قدرتنا الكلامية أو السماعية، والوجود أسمى وأجل من أن ينظم على اللسان أو السمع الفانى، .....، إلا أننا يجب أن نغامر حتى ولو لم يكن فى قدرتنا، وينبغى أن نجلب الأشياء من مخزوننا ونذكر ما وصل إليه العقل البشرى بتوقه وحبه للحكمة.

فما يحفره النحات graver ويكون صغيرًا جدًا قد يأخذ صورًا عديدة وربما قد تكون الشريعة قد سجلت روعة خلق العالم فتتجاوز ما استجلبناه من أنفسنا»[1].

وهنا يقرر فيلون أن القدرة البشرية محدودة ومقصورة على السمع والبصر والعقل «وهذه الحواس عاجزة عن إدراك خلق العالم لأنها تدرك ما هو أدنى، أو ما تعيشه فى اللحظة وهى غير قادرة عن أن تنظم كما تنظم فى الشعر والنثر نسقًا كاملًا عن قصة الخلق فبعضهم لعجزة يندهش بالعالم أكثر من خالق العالم، ويرون أنه بلا بداية أو نهاية، وهذه دوجماطيقية متعصبة ـ مغالطة شديدة ـ تفترض عدم القدرة فى الله. ويوجهنا فيلون ان نكون على النقيض من هؤلاء حين نتعجب من هذه القدرة التى تنسب لله كصانع وأب لهذا العالم، وألا نعزو مثلهم خلق العالم إلى السحر»[2]. وفى هذه الحالة يجب ان نرتمى فى أحضان الدين لأن موسى أعطى خلاصة الحكمة ورفعها فى أعلى عليين، وجعل الجزء الأساسى منها فى طبيعة المعرفة التقليدية، وإدرك أن العالم يتضمن جانبين: أحدهما علة فاعلة، والأخر، موضوع

(1) Philo: on the creation, op. cit. ch 1 - 2, 6, p 8.

(2) ibid: ch2. 2. 7 p 8.

منفعل[1]، والعلة الفاعلة تكون خالصة وتتجاوز المعرفة والخير والجمال فى ذاته، والجانب المنفعل غير قادر على الحياة والحركة فى ذاته، إنما توضع فيه الحركة والأشياء ويحيا عن طريق العقل، ويصبح كالتحفة التى يصنعها صانع ماهر، أعنى، هذا العالم. وهذه العلل تؤكد أن العالم لم يبن على محو اللاشعور، الذى لا غنى عنه ـ العناية الإلهية ـ وكى نقف على السبب الذى يظهر لنا الوجود، فلابد أن نرجع إلى الأب أو الصانع، لأننا كما نعلم أن هدف الأب فيما يتعلق بذريتة أو الصانع فيما يتعلق بعمله اليدوى أن يصونه أو يحفظه بأى وسيلة، وكى يصونه ينبغى ألا يترك إرثه يضيع أو يأذيه أحد، لأن الرب يؤكد برغبة حاتمة أنه يحمى الإنسان[2].

وينتقل فيلون فى النص السابق إلى قضية أخذت سياقها الفكرى من القضية الأولى ـ التوفيق بين الفلسفة والدين فى خلق العالم كمقدمة للحديث عن الخلق ـ وهى التفرقة بين جانبين من الوجود، وجود الرب كعلة فاعلة

(1) إن تصور فيلون للعالم بأنه يحوى جانبين أحدهما علة فاعلة والأخر موضوع منفعل هو فكرة أرسطية سيطرت على فلسفة الطبيعة عنده خاصة فى مفهومى الحركة والنفس ونظرية العلية. ففى الحركة يؤكد وجود طرفين للتغير والحركة، طرف متقبل وطرف مؤثر فاعل، ومبدأ الحركة أن يكون الفاعل مختلفا عن المنفعل أو هى قابلية الانفعال بشىء أخر تقتضى دائما الاشارة إلى طرف سالب وطرف موجب، فقوة الطبيب مثلا تقتضى وجود طرفين طرف يشفى وطرف أخر يتقبل الشفاء انظر :Aristotle The works of Aristotle, Metaphysics, Transalted into English Editorship W.D.Ross, Greet Books of western world, vol 2, ed by :R. Mhutchins publisher, chicago, 1952, b 1019 - 1020 p42 وفى النفس حين يعرفها بأنها كمال أول لجسم طبيعى إلى ذى حياة بالقوة وهو يحتمل ثلاث درجات للوجود وجود بالقوة ووجود بالفعل الاول أول درجات تحقق الوجود بالفعل ووجود بالفعل الثانى وهو أعلى درجات تحقق الوجود. انظر أرسطو: كتاب النفس. ترجمة د/ احمد فؤاد الأهوانى والأب جورج قنواتى، دار المعارف، القاهرة، 19-45 ب 8، 1، 412، 25.

(2) Philo: on the creation. op. cit. ch 1v. 18. p 17

ووجود العالم كموضوع منفعل، وهذان الجانبان غير منفصلين عن بعضهما البعض، إنما بينهما حالة من الاتصال تبدو فيما أسماه علاقة الصانع بعمله. فعلاقة الجانب الفعال وهو الرب والمنفعل وهو العالم بما فيه الإنسان هى حفظ الرب للعالم والإنسان لأنه صنعة يده. وهذا يفرض دربا من الالتزام من جانب المنفعل، وهو أن يعرف علة وجوده أو الذى شكله ومن لم يعرف هذا الالتزام فإنه يقيم الفوضوية فى مملكة العالم، وبناء على هذين الجانبين اللذين فرضا من جانب فيلون فإن العالم عنده طبقا لفكره الدينى مكون من جانبين أحدهما مرئى والأخر مدرك بالعقل، وكما هو موضوع للعقل مأخوذ من سفر التكوين، وهذا يعنى أن للعالم بداية، وهذه البداية تدلل على عظمة الرب grandeur.

ويجب أن نلاحظ جيدًا أن سرد هذه القضايا وإن كانت هذه القضايا لها أبوابها الخاصة بها فى فكره فهى تعبر عن رغبة فيلون فى وضع إطار نظرى يبرر به تعانق فكره الدينى مع فكره الفلسفى لإظهار مفهوم خلق العالم.

وقد حاول فيلون الاستعانة بالفلسفة اليونانية وخاصة محاورة تيمايوس لأفلاطون والفكر العبرى فى الكتاب المقدس كأساس يعتمد عليه فى تفسير الخلق وجاء ذلك على مستويين: الأول، النظام العبرى الأسطورى، والثانى، وهو التأمل الموجود فى الفلسفة اليونانية، ومعنى ذلك أنه حاول عمل انسجام بين الموسوية والأفلاطونية فى خلق العالم، مفسرًا للقصة الواردة فى الكتاب المقدس ومستخدما المفاهيم والمقولات اليونانية، وهو ما شكل أساس للفكر المسيحى فى العصر الوسيط وآباء الكنيسة الأُول مثل أورجنت وكليمنت بعد ذلك.

ثانيًا ـ الخلق المتدرج العالم

عرض فيلون لنشأة العالم عرضًا تاريخيًا يسيطر عليه الأسلوب النثرى